مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد
السابع عشر
2000

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة - تصدر سنويا

1430 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 2000 افرنجي

وصف طرابلس الغرب

في الرحلة التيجانية

الأستاذ مفتاح محمد عبد الجليل

توطئة:

من المسائل المهمّة في التراث العربي الإسلامي الأسفار والرحلات التي قام بها جغرافيون علماء من الأقطار العربية، والإسلامية في ظروف عسيرة لا تسمح بالحركة، والمسير لمسافات واسعة عبر الصحراء، وكان أولئك الرجال العلماء أكثر الناس وصفاً، وضبطاً للمناطق والبقاع التي مروا بها، فأوْلَوْا المعرفة أهمية فائقة، ومنحوها كل ما يملكونه من وقت وجهد.

وقد كان الرحالة الأديب التونسي أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن أحمد التيجاني أحد المغامرين الذين أسهموا في هذا المجال الجغرافي بنصيب ملحوظ، فقطع مراحل كبيرة في رحلة معروفة خلال المئة الثامنة الهجرية بدأت

من مسقط رأسه بالبلاد التونسية، وكانت أكثر الرحلات المغاربية عناية، واهتماماً بأمور البلاد الليبية، وأوضاعها التضاريسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ومعالمها العمرانية، وجميع ما يتعلق بظروفها من أخبار وآثار. على أن هذه الرحلة التي اتجهت صوب المشرق كانت بداية المشوار نحو المغامرة، والكشف بطريق مباشر انتفع فيه الرحالة المذكور بالمشاهدة الواقعية، والاطلاع الدقيق، ولذلك وقع الاعتماد عليها في توضيح الملامح العمرانية الطرابلسية، فاختيرت الطبعة التونسية الصادرة عام 1958ف، عن وزارة الإرشاد القومي أساساً أولياً لهذا العمل البحثي، وقد قدّم لها الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب وأخرجها في طابع مقبول، بيد أن الاستفادة بمصادر أخرى كانت أحد العوامل المعينة على إثراء البحث، وتوجيهه نحو غايته المعرفية.

كانت طرابلس الغرب حاضرة الإقليم الليبي محط نظر الرحّالة والإخباريين منذ عصر هيرودوت[1] اليوناني حتى هذا الوقت. وقد مرّ بها حشدٌ من الرحّالة العرب المشهورين، منهم (العبدري. ت 703هـ)، و(ابن بطوطة ت 779هـ)، و(العياشي ت 1090هـ)، و(الحشائشي 1319هـ)، وغيرهم كثير[2].

وقد عني أولئك الرحّالة بمعالمها، ومظاهر عمرانها فوصفوها معتمدين على مشاهداتهم، وجولاتهم بها، ومحاولين التنويه بمحاسنها، وما اشتملت عليه من فضل ونحوه.

على أن أكثرهم وصفاً لها، وعناية بفضائلهما وأخبارها، الكاتب الأديب التونسي أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني أحد أدباء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وأشهر الكتّاب الذين تولوا مهمة الكتابة بديوان الإنشاء لشيخ الموحدين أبي يحيى زكريا بن اللحياني الذي فوّض إليه تلك

---

(1) هيرودوت، مؤرخ يوناني قديم تناول البلاد في كتاباته القديمة، وذكرها في تضاعيف أخباره، وآثاره. انظر ـ مصطفى عبد الله بعيو ـ المجمل في تاريخ لوبيا، منشورات، مطبعة عابدين، الإسكندرية، مصر. (ط/ الأولى 1947م). جـ1/ 12، وما بعدها.

(2) علي مصطفى المصراتي، أعلام من طرابلس، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا (ط/ الثانية 1972م) ص21 ـ 26.

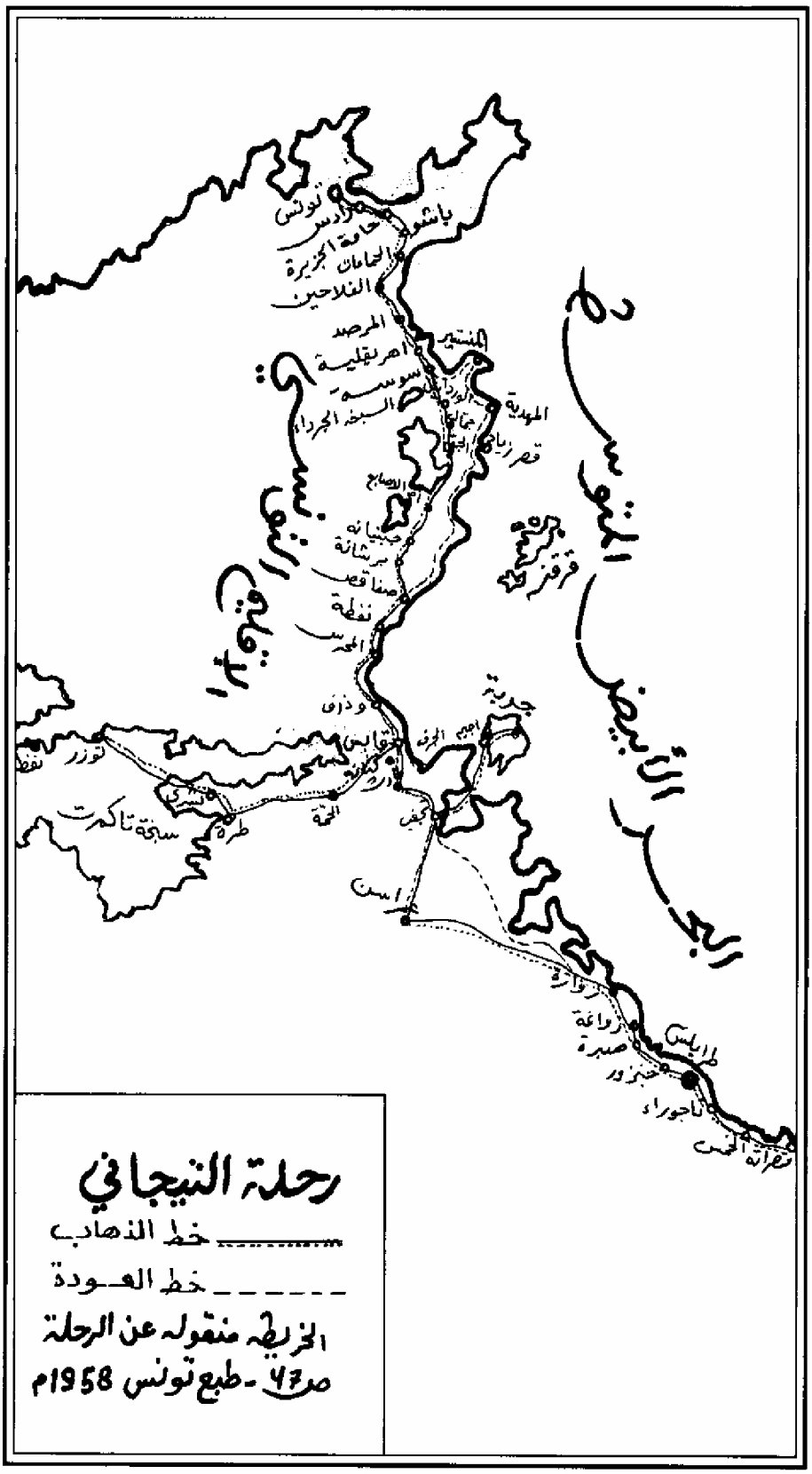
البحر الأبيض المتوسط
تونس
باشو
قرقنة
المهدية
قصر زياد
الصخيرة
صفاقس
نقطة
جربة
توزر
سبخة تاكرت
طرة
الحمة
قابس
جرزة
زارة
زاغة
صبرة
خبزور
تاجوراء
رحلة النيجاني
خط الذهاب
خط العودة
الخريطة منقولة عن الرحلة
ص 47 - طبع تونس 1958م

المهمة، وأوكل إليه الإشراف على شؤونها لما ظهر له من نبوغ هذا الكاتب واقتداره النادر[3].

وقد عزم التيجاني الكاتب على أداء فريضة الحجّ فأعدّ عدته للسفر وتهيأ للخروج، فغادر مدينة تونس متجهاً نحو المشرق عام 708هـ، وقد أسرَّ خروجه فلم يخبر به أحداً سوى بعض خواصه الذين كانوا في جماعته التي رافقته أثناء الرحلة[4]. وبعد عبوره للبلاد التونسية باتجاه الشرق دخل الإقليم الليبي، فطاف مدنه وقراه حتى بلغ حاضرته المشهورة «طرابلس الغرب» فحلّ بين أهلها ضيفاً مكرّماً، واستقبله الجميع استقبالاً بهيجاً يليق بمقامه، حتى إن والي البلد خرج للترحيب به، وأخلى له داره بالقصبة[5] ليقيم بها مدة نزوله بالمدينة التي احتضنه لما يقرب من عام، ونصف العام آنذاك[6].

نزوله طرابلس الغرب ووصفه لها:

عند دخول التيجاني في طرابلس الغرب، ونزوله بها، وجد أنَّ أهلها من أكثر الناس جوداً، وأحسنهم معاملة، وأنبلهم خُلقاً، وفضلاً، فعزم على الإقامة بها لمدة طويلة من الزمن[7]. وما من شك أنَّ هذه الفضائل النفسية، والقيم المحمودة من أعرق الصفات الراسخة في نفوس الأهالي، وأبرزها شيوعاً بينهم، وهي أمثل الدوافع التي جعلت هذا الرحالة ينظر إلى مدينة طرابلس الغرب بعناية مخصوصة، ويبدي إعجابه بعمارتها أثناء وصفه لها، وحديثه عنها.

على أنّه دوّن مشاهداته التي نتجت عن طول معاينة وتجوال في أنحاء المدينة، فوصف أبنيتها، ومعالم العمران والبناء فيها، وأشاد بأهلها، وحسن

---

(3) التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، الرحلة. قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، نشر المطبعة الرسمية التونسية، تونس. (ط/ الأولى 1958م) ص20 ـ 25.

(4) المصدر نفسه، ص4 ـ 5.

(5) القصبة ـ وسط البلد. انظر ـ ابن منظور، علي بن مكرم، لسان العرب 11/ 232.

(6) المصدر نفسه، ص237.

(7) نقولا زيادة، لمحات من تاريخ العرب، منشورات دار الكتاب اللبناني بيروت/ لبنان (ط/ الأولى 1961م) ص300.

معاملتهم، وكرم طباعهم، وأثنى عليهم في ثنايا أحاديثه عنهم، وقد استهل وصفه وتحليله بخلاف لغوي دار بين بعض اللغويين، وأهل المعارف والفكر حول تسميتها، «بطرابلس». فقال: «والأشهر في هذه المدينة طرابلس بفتح الطاء، وضم الباء، واللام. قال البكري في المسالك: (وترجمة هذه اللفظة باللغة الإغريقية ثلاث مدن). تم كلامه[8]. وبعض الناس يكتبها حيثما وقعت في خطه بالألف، وعلى هذا قول أحمد بن يحيى من قديم شعرائها في قصيدة له: «متقارب».

لقد طال شوقي إلى فتية حسان الوجوه بأطرابلسِ[9]
وقد عيل صبري فما مسعدي على الشوق إلا دموع بجس»

وقد أفاد بأنَّ هذه التسمية وردت تمييزاً لها عن طرابلس الشام. فقال: «وذكر لي بعض النبهاء من طلبتها أنه وقف لبعضهم على أنّ المختار في طرابلس الشام أن تكتب دون ألف تفرقة بينهما»[10].

ومن جهة أخرى ذكر بأنّ الكاتب المتأخر أبو الحسن علي بن أبي بكر بن بلال سكّن لام طرابلس استناداً إلى ما تقرر في العربية من جواز تغيير الأسماء الأعجمية للضرورة، فقال في بعض وترياته مخبراً عن نفسه: «طويل».

سرى فرساً في سيره، ولو أنّه خليٌّ من الأوزار سار، ولم يرسُ
سعى سعي طمّاح لأبعد غاية فكانت له دار المقام طرابلسُ
سينضي ركاب العزم عنها مجرداً لأفضل من دانت له الجنّ، والأنسُ»[11]

وهذه التوطئة اللغوية التي مهد بها الرحالة التيجاني لحديثه عن مدينة طرابلس الغرب تؤكد، إلى أقصى حد، مدى إعجابه بالمدينة وقاطنيها من أهالي البلد، وتوضح ملامح الموهبة الأدبية واللغوية لديه، بحيث أورد الكثير من شواهد اللغة والأدب التي انتقاها لتوكيد ما ذهب إليه من رأي وتحليل.

---

(8) أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، نشر دي سلان، المطبعة الحكومية، الجزائر. (ط/ الأولى 1857م). ص79.

(9) التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص271، مصدر سابق.

(10) المصدر نفسه، ص271.

(11) المصدر نفسه، ص271.

1 ـ وصف العمران في طرابلس الغرب:

أشاد هذا الرحالة بطيب هواء المدينة، وصفاء جوّها، وبياض شعاع شمسها الذي توافق مع بياض أبنيتها، فكان سبباً في تسميتها بالمدينة البيضاء[12]، على ما ذكره أول وصفه لها، وإلى جوار ذلك أشاد بسكّانها الذين رحبوا بمقدمه، وأكرموا وفادته عليهم، وأبدى ارتياحه إلى ما شاهده، ولقيه من حفاوة، واستقبال عند قدومه إليها، ثم شرع في وصف مظاهر العمران الطرابلسي الذي عاينه عن قرب[13]، وعدده، وهو:

أ ـ سور المدينة، وشوارعها، وأبوابها:

تناول سور المدينة بالوصف والثناء، فذكر بأنّه عظيم البناء، وجيده، وفيه تظهر علامات الحرص وإتقان العمل، وأبدى إعجابه به فأثنى عليه بقوله: «ورأيت بسورها من الاعتناء، واحتفال البناء ما لم أره لمدينة سواها»[14]، وهذه العناية التي نوّه بها توضح المدى الذي وصلت إليه استحكامات طرابلس الدفاعية التي استوفت متمماتها الأساسية بسورها العظيم الذي يحيط بها، فهو طوقها الأمني من ناحيتي البرّ والبحر على مرّ الزمن، على أنّ هذا السور المحيط بالمدينة من جهاتها المختلفة خماسي الأضلاع، وبه أبواب مخصصة لدخول السكان وخروجهم[15].

وأمّا شوارعها فقد حظيت باهتمام الرحالة التيجاني وثنائه؛ لما تمتاز به من استقامة واتساع ونظافة، فقال عنها:

«ورأيت شوارعها، فلم أر أكثر منها نظافة، ولا أحسن اتساعاً، واستقامة، وذلك أنّ أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من أولها إلى آخرها على هيئة

---

(12) المصدر نفسه، ص273.

(13) إحسان عباس، محمد يوسف نجم، ليبيا في كتب الجغرافية والرحلات دار ليبيا للنشر والتوزيع، (ط/ الأولى 1968م) ص138.

(14) التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص238، مصدر سابق.

(15) سالم سالم شلابي، عناوين على نواصي المحروسة، طرابلس القديمة. منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا. (ط/ الأولى 1994م)، ص149

شطرنجية، فالماشي يمشي بها مشي الرخِّ خلالها»[16]. ولكنه لم يفصّل حديثه عنها، واكتفى بالتنويه، والإعجاب دون ضبط ملحوظ لمواضعها بالمدينة، بيد أنّ الأبواب الموجودة بها لقيت نصيبها من الوصف والتوضيح وهي:

أولاً: باب الستارة:

وقد اشتهرت تسميته بهذا الاسم؛ لأنه يعد الباب الرئيسي لسور الستارة، وهو سورٌ أقصر من سور المدينة المحيط بها، وشيّد إلى جانب منه بأمر الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص أيام وصوله إلى مدينة طرابلس الغرب[17].

وقد أشار التيجاني في تضاعيف وصفه إلى وجود باب آخر يسمّى باب هوّارة في مواجهة باب الستارة المعروف بباب عبد اللّه من السور القديم، وهذه التسمية مصدرها يعود إلى الأغالبة، فالسور يرجع بنسبته التاريخية إلى الأمير عبد اللّه بن الأغلب[18]، الذي انتفع به في حروبه الضارية خلال عام 284هـ[19].

ثانياً: باب هوّارة:

هذا الباب يقع في مواجهة باب الستارة، ويقابل مرابض قبائل هوارة التي كانت تقيم شرقي أسوار المدينة، وتسميته تعود إليها لقدم نزولها بالمكان المذكور[20]، وفي وسطه بطحاء متسعة يعرفونها بموقف الغنم، وذلك لأن الأهالي كانوا يبيعون بها أغنامهم، ومواشيهم، ومسجدٌ قديم ينسب للصحابي الجليل عمرو بن العاص الذي دخل المدينة فاتحاً أثناء خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه[21].

---

(16) التيجاني، أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص238، مصدر سابق.

(17) المصدر نفسه، ص240.

(18) الأمير، عبد اللّه بن الأغلب، أحد أمراء الأغالبة المشهورين، وقد غدر به جنده فقتلوه عام 290هـ، انظر ـ الطاهر الزاوي. تاريخ الفتح العربي في ليبيا (منشورات دار الفتح والتراث العربي، ليبيا. (ط/ الثانية 1963م) ص228.

(19) سالم سالم شلابي، عناوين على نواحي المحروسة، طرابلس القديمة، ص45.

(20) التيجاني، أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص245، مصدر سابق.

(21) المصدر نفسه، ص245.

ثالثاً: الباب الأخضر:

يقع هذا الباب عند نهاية سور الستارة في اتجاه ساحل البحر عند الجهة الشمالية من المدينة[22]، وهو ما يشتمل عليه قول التيجاني: «ولم يصلوا هذه الستارة حين بنوها بالبحر، وإنما انتهوا بها إلى الباب الأخضر، وبينه وبين البحر فسحة»[23]. ويستدل من هذا القول أنّه شاهد المواضع الخربة من المدينة عند السور.

رابعاً: باب البحر:

وهو يقع عند موضع السور الشمالي الشرقي للمدينة، ويتكون من فتحتين مزدوجتين في مواجهة ساحل البحر، ملصقاً بضريح الرجل الصالح سيدي عبد الوهاب القيسي[24].

وقد اشتهر بهذه التسمية لأنه يفتح ناحية البحر، وما زال ذكره مشتهراً داخل المدينة حتى هذا الوقت[25].

خامساً: باب البر:

هذا الموضع عُرف بباب البرّ، ويقع في مواجهة باب البحر، وهو من أبواب مدينة طرابلس الغرب المعروفة[26].

وتلك هي أشهر أبواب المدينة كما ذكرها التيجاني أثناء وصفه للمظاهر العمرانية الطرابلسية، وفي ثنايا الوصف أورد بيتين من الشعر هما: «بسيط».

لوقفة عند باب البحر ضاحية أو باب هوّارة، أو موقف الغنم
أشهى إلى النفس من كسر الخليج ومن دير الزجاج، وشاطي بركة الخدمِ[27]

---

(22) سالم سالم شلابي، معالم المدينة البيضاء، مدينة طرابلس، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا. (ط/ الأولى 1994م)، 43.

(23) التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص240، مصدر سابق.

(24) المصدر نفسه، ص245، مصدر سابق.

(25) سالم سالم شلابي، معالم المدينة البيضاء، مدينة طرابلس القديمة، ص38.

(26) المصدر نفسه، ص27.

(27) التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص245، مصدر سابق.

ب ـ الجوامع والمساجد ودور العبادة الأخرى:

عدد صاحب الرحلة بين مظاهر العمران الطرابلسي التي أشاد بها الجوامع والمساجد، ودور العبادة المختلفة التي شاهدها بالمدينة، وعاين أبنيتها، وتلك الجوامع والمساجد هي:

1 ـ الجامع الأعظم:

وهو جامع طرابلس الأعظم، ويقع بين باب البحر، والباب الأخضر، ويقابل السور الأصلي للمدينة وفق ما ذكره التيجاني[28]، ويعتقد المتأخرون من أهل البحث والدرس أنّ لهذا الجامع أثراً باقياً بداخل حوش قنابة بشارع درغوث باشا بالقرب من باب البحر[29].

وقد نوه بذكره التيجاني. فقال عنه: «وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة، وسقفه حديث التجديد، وبه منار متسع، قائم من الأرض على أعمدة مستديرة، فلما تمّ نصفه سدّس، وكان بناؤه في العام المكمل للمئة الثالثة»[30].

وقد شيّده بنو عبيد، وجعلوا له منارة مرتفعة، وأعمدة سامقة، واتساعاً كبيراً ميّزه عن غيره من الأبنية القائمة إلى جواره[31].

2 ـ مسجد العشرة:

يقع هذا المسجد وسط البلد، وقد سُمّي بهذا الاسم لأن هناك عشرة من أشياخ البلد كانوا يجلسون فيه للتشاور في أمور المدينة وأحوالها، وما يتعلق بشؤونها من حوادث، وقد زال عنه هذا الاسم بعد اجتياح الموحدين للإقليم الليبي، واستيلائهم على حاضرته طرابلس الغرب[32].

على أنه يوجد بداخل أسوار المدينة القديمة، وقد أقام على أنقاضه أحمد

---

(28) مجلة تراث الشعب، العدد «1» مسلسل 26 ـ النصف الثاني 1400 و.ر 1991م، مقالة حول جامع طرابلس الأعظم، ص29.

(29) المصدر نفسه، ص31.

(30) التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص253.

(31) المصدر نفسه، ص253.

(32) المصدر نفسه، ص237.

باشا القره مانلي جامعه المعروف بجامع الباشا بسوق المشير. ومن جانب آخر فإن مسجد العشرة كان بناؤه في عهد أسرة بني مطروح[33].

3 ـ مسجد الشعاب:

وهو بخارج سور المدينة القديمة من جهة الشرق يطل على البحر، وينسب للتقي الصالح سيدي أبو محمد عبد اللّه الشعّاب[34]، الذي أتمّ بناءه بعد أن عجز أحد الأهالي عن إتمامه في أوائل المئة الثالثة الهجرية، وقد أقام البناء، ورفع أعمدته، وكان هذا الصالح نجاراً بطرابلس الغرب، وبقي المسجد منسوباً إليه حتى هذا الوقت[35]. وإلى جواره يوجد ضريحه الذي أصبح أشهر المقابر بالمدينة، ويسمّى حالياً «بجبانة الشعّاب» وهي ملاصقة للمسجد.

4 ـ مسجد الجدة أو الجدود:

اشتهر هذا المسجد بمسجد الجدة أو الجدود؛ لأن إحدى جدات بني الأغلب ولاة الشمال الإفريقي، قامت بتشييده، ثم عُرف بعد ذلك بمسجد البارزي، وهو بخارج المدينة من جهة جوفيها، وفق ما ذكره صاحب الرحلة في تضاعيف مشاهداته التي دوّنها في ثنايا الوصف[36].

5 ـ مسجد خطّاب:

ويقع بخارج المدينة من الناحية الشرقية بالتحديد، ويشرف على البحر، وينسب بناؤه للشيخ سيدي خطاب البرقي الطرابلسي والمكنّى أبا نزار، وكانت له كرامات مشتهرة في ذلك العهد[37].

6 ـ مسجد المجاز:

وهو أكثر المساجد الطرابلسية شهرة، وذيوعاً، وكان معروفاً بسكنى الفقيه

---

(33) الزاوي، الطاهر أحمد، معجم البلدان الليبية، دار مكتبة النور للنشر طرابلس، ليبيا. (ط/ الأولى 1968م) ص314.

(34) انظر ـ الطاهر أحمد الزاوي، أعلام ليبيا، ص196.

(35) التيجاني، أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص247 ـ 248، مصدر سابق.

(36) سالم سالم شلابي، عناوين على نواصي المحروسة، طرابلس القديمة، ص65.
التيجاني أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص249.

(37) المصدر نفسه، ص249.

الورع سيدي أبي الحسن علي بن أحمد بن الخصيب له، وقد امتدت سكناه به مدة تقارب الأربعين عاماً[38]، وقال عنه التيجاني: «وهذا آخر ما حضرنا ذكره من المساجد»[39]. بالإضافة إلى دور عبادة واعتكاف أخرى، منها: مصلى البلد، وهو حديث الموضع بالنسبة لما هو مجاور له من أبنية أثناء إقامة صاحب الرحلة بالمدينة[40]، وقد كانت به مقبرة تعرف بـ«جبانة المصلى» وأزيلت في الوقت الحاضر، وهي بالناحية الجنوبية الشرقية من المدينة، وتطل على جامع عمورة المتفرع من شارع ابن عاشور[41].

وتوجد إلى جوار هذه الجوامع ودور العبادة الإسلامية، كنيسة مسيحية قديمة بالمدينة، وقد وجد عليها صاحب الرحلة كتابة بارزة أفاد بأنها تعني أن هذه الكنيسة بُنيت من غلة زيتونة في الفترة التي ظهر فيها نبيٌّ حجازي اسمه محمد بن عبد الله في بلاد العرب[42].

جـ ـ الحمامات والآبار:

من ملامح العمران الطرابلسي في تلك الحقبة من الزمان الذي شهد إقامة الرحالة التيجاني بالمدينة، جملة من الحمامات الواسعة، منها «حمام البلد»، ويقع إلى جوار القصبة، وقد نوّه به صاحب الرحلة. فقال: «ودخلت حمام البلد، وهو المجاور لقصبة البلد، فرأيت حماماً صغير الساحة إلا أنّه قد بلغ من الحسن غايته، وتجاوز من الظرف نهايته»[43].

على أن هناك حمامين صغيرين أقل حسناً، وجمالاً منه، وفيما يختص بالآبار والعيون فإنّه أوضح بأن هناك عيون ماء عذبة تنصرف إلى البحر، وتنبع من مصلى البلد القديم[44]، وذلك المنبع يسمّى «بِسواني العيون»، وبجواره بئر

---

(38) المصدر نفسه، ص248.

(39) المصدر نفسه، ص251.

(40) المصدر نفسه، ص246.

(41) سالم، سالم شلابي، عناوين على نواصي المحروسة، طرابلس القديمة، ص67.

(42) التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص253، مصدر سابق.

(43) المصدر نفسه، ص237، 238.

(44) المصدر نفسه، ص246.

نبتت به شجرة واحدة من شجر الجميز، وهو الموضع المعروف حالياً، بسوق الثلاثاء القديم[45]، وهناك بئر مشتهرة الذكر بالمدينة تعرف ببئر أبي الكنود، وكان الأهالي ينفرون الشارب منها، ولا ينتفع أحدٌ منهم بمياهها، وهي تقع داخل أسوار المدينة القديمة، وقد اندثر أثرها، وخفي موضعها غير أنّ التيجاني عاين موقعها أثناء نزوله بطرابلس الغرب، وشاهدها، وأفاد بأنها توجد بالمدينة، وأن أهل البلد يوردون عليها بهائمهم، وبعضهم يشرب من مائها ولا يتحرج في ذلك مع علمه بما يسند إليها من مساوىء وعيوب[46].

وفي وسط المدينة لا تكاد تخلو دار من نخلة أو كرمة على اصطلاحهم، لأنهم يسمون شجرة التين كرمة، والكرمة في اللغة تعني شجرة العنب. وهذه التسمية الطرابلسية ذائعة في العصر الحالي بين أهالي البلد[47].

د ـ ميناء المدينة ومرساها:

وهو من أنزه المناظر التي لفتت انتباه صاحب الرحلة، ونالت إعجابه وعنايته، فأشاد بحسنه، وذكر بأنه يقع خارج باب البحر[48]، ويشرف على الساحل، وبه مرسى فسيح، تقرب فيه المراكب من البرّ، وقد أدهشه منظرها، فوصفها بقوله: «وتصطف هنالك اصطفاف الجياد في أواذيها»[49].

وقد شهد هذا الميناء تطوراً ملحوظاً في المرفأ، واتساعاً كبيراً في مرافقه، ومؤسساته حتى أضحى أحد الملامح الجمالية في طرابلس الغرب خلال العصر الجاري.

هـ ـ المدارس ودور العلم:

من أنماط العمران الطرابلسي التي خصّها الرحالة التيجاني بعنايته واهتمامه أثناء الوصف مجموع المدارس ودور العلم المتعددة، فقال: «وبداخل البلد

---

(45) سالم سالم شلابي، عناوين على نواصي المحروسة، طرابلس القديمة، ص204.

(46) التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص259، مصدر سابق.

(47) انظر، خليفة التليسي، حكاية مدينة، منشورات الدار العربية للكتاب طرابلس/ تونس، (ط/ الثانية 1985م)، ص37.

(48) المصدر نفسه، ص246.

مدارس كثيرة، وأحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا الطرابلسي[50]، رحمه الله تعالى، وذلك فيما بين سنة خمسة وخمسين، إلى سنة ثمان وخمسين، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً، وأحسنها صنعاً»[51] وهي تقع في مسامتة قوس الرخام، وهذا القوس يوجد بينها وبين باب البحر، وكانت حولها جنينة صغيرة مزروعة حبقاً[52]، وقد أعجب بها صاحب الرحلة إعجاباً كبيراً، وأجال فيها بصره مفتوناً بسحرها، وقال من البسيط:

يا حبذا نسمة هبت لناشقها ... غبُّ الكرى سحراً من روضة الحبقِ

حسبتها عندما هبت وقد نعشت ... ببلة من نداها روح منتشقِ

قرنفل الهند قد وافى التجار به ... محافظين على نشر له عبقِ[53]

على أنّه في تضاعيف حديثه عن العلم وفنونه بطرابلس الغرب. أشار إلى أنّ «القائم برسم العلم في هذه المدينة في زمانه الشيخ الإمام الحافظ أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عبد العزيز بن عبيد، وهو رجل ليس من عمرو، ولا زيد، ناهيك من رجل قد نال من المعارف ما اشتهى، وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى، حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم، ذاكراً بالمذهب لا يجاريه فيه أحد ولا تكاد مسألة من المسائل تشذ عنه»[54].

وقد ذكر من شيوخه ممن عرف بعلم ونحوه، فنوه بقاضي البلد أبو موسى عمران بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي[55]، وأشاد بفقيه العصر أبي

---

(49) المصدر نفسه، ص246.

(50) انظر، الطاهر أحمد الزاوي، أعلام ليبيا، (ط/ الأولى 1961م)، القاهرة، مصر، ص154.

(51) المصدر نفسه، ص251 ـ 252.

(52) الزاوي، الطاهر أحمد، معجم البلدان الليبية، ص304.

(53) التيجاني، أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن أحمد، الرحلة، ص252، مصدر سابق.

(54) المصدر نفسه، ص254.

(55) المصدر نفسه، ص255.

محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا[56]، والحافظ أبي محمد بن عبد الكريم الغماري[57]، والفقيه أبي العباس الأعجمي المشرقي، وغيرهم من علماء العصر، وفقهائه الذين قابلهم أو بلغته أخبارهم وآثارهم[58].

و ـ المقابر والمزارات:

ذكر صاحب الرحلة مقابر المدينة، وأشار إلى اتساعها، وكثرة القبور بها. فقال: «ورأيت مقابر طرابلس كلها فوجدتها قد امتلأت من بني آدم، وغلبت عظامهم على تراب الأرض، فلا ترى منها ملء كف من تراب، إلا وعليها جمجمة أو عظم، ولا سيما الجهة الشمالية منها، وكثيراً ما يدفنون هناك الغرباء الذين ليسوا من أهل البلد»[59].

وقد عدد بعض قبور الصالحين، وعلى رأسهم قبر التقي الصالح سيدي أبي محمد عبد الوهاب القيسي رحمه الله، وأثنى عليه، وأشاد بورعه، وتقواه، فقال: «وهذا الرجل يعظمه أهل طرابلس، وحكى لي جماعة، منهم: أنه رأى النبي ﷺ في منامه نحواً من أربعمائة ليلة»[60]. وذكر أيضاً قبر الفقيه الإمام أبي إسحاق بن الإجدابي[61] المشتهر بسعة علمه، وغزارة معارفه وكثرة آثاره، وفوائده، وزاره أثناء إقامته بالمدينة[62] ترحماً عليه، ولكنه لم يذكر قبر الصالح سيدي أبي محمد عبد الله الشعّاب على الرغم من أنّه نوّه بمسجده المدفون إلى جواره، وهو الموضع المعروف حالياً «بجبانة سيدي الشعاب».

وفيما يتعلق بمصادر العيش، وموارد الرزق في مدينة طرابلس الغرب إجمالاً دون تفصيل. قال صاحب الرحلة: «واعتماد كل واحد من الناس في

---

(56) المصدر نفسه، ص257.

(57) المصدر نفسه، ص257.

(58) المصدر نفسه، ص257.

(59) المصدر نفسه، ص267.

(60) المصدر نفسه، ص259.

(61) ابن الإجدابي، أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، لغوي وفقيه مشهور، توفي عام 650هـ. انظر ـ الطاهر الزاوي، المنهل العذب في أخبار طرابلس الغرب 10/ 166 ـ 167.

(62) المصدر نفسه، ص262.

طعامه، وما يدخره من قوت عامه؛ إنما هو على ما يجلب إليها في البحر»[63].

وفي هذا الجانب يشير إلى عادة أهل البلد فيما يتعلق بكسب القوت، وطلب الرزق. فيقول: «ومن عاداتهم أن لا يتركوا أحداً يخرج شيئاً مما حصل ببلدهم من الطعام إلى خارجه، ويعاقبون على إخراجه»[64]. ثم يؤكد أن البلد ليست بلد حراثة، ولكنها تعتمد على البحر في جميع منافعها على الرغم من أن أرضها خصبة، ولا مثيل لها في إصابة الزرع[65].

وهو في معظم أحاديثه التي خصّ بها مدينة طرابلس الغرب حاضرة الإقليم الليبي كان موضوعياً في وصفه، وعرض أوجه نظره، فلم يدع من ملامح العمارة والبناء إلا ما هو غريب الأثر، ولا يملك حوله من المعلومات ما يكشفه، ولذلك حاول الاقتراب من واقع المدينة، ومعاينة المعالم المختلفة، حتى لا يشتبه عليه في ضبط الحقائق والفوائد المتعلقة بالبلد في ذلك العهد.

وقد استطاع الرحالة التيجاني الانفراد ببعض الميزات التي جعلت رحلته أفضل الرحلات وأكثرها نفعاً في الحقل المعرفي بالنسبة لهذا الجيل والأجيال التي سبقته، وستبقى على مدى الزمن مصدراً ثريّاً بالمعارف والقيم الفكرية والثقافية. والميزات المقصودة هي:

أولاً: براعة التيجاني وقدرته الفائقة في ضبط مراحل تجواله، وهذه الميزة تعود إلى ملكته الأدبية، وموهبته الفكرية الراقية التي جعلته يترأس ديوان الإنشاء في البلاط المُوَحِّدي آنذاك.

ثانياً: اعتماده الدائم على مشاهداته، وملاحظاته التي كانت نتاج إقامته بالمدينة لأكثر من عام ونصف العام، وهي فرصة مناسبة لضبط الحقائق والتثبت منها[66].

---

(63) المصدر نفسه، ص258.

(64) المصدر نفسه، ص258، 25.

(65) المصدر نفسه، ص258، 259، نقولا زيادة، لمحات من تاريخ العرب، ص302.

(66) انظر، إحسان عباس، تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري. دار ليبيا للنشر والتوزيع والإعلان، بنغازي، ليبيا. (ط/ الأولى 1967م)، ص220.

ثالثاً: حياده المطلق في الوصف، وانتفاعه بأهل العلم والمشورة، وتركيزه المطلق على معاينة المناطق، وتحليل الآراء، ودرسها والتحقق منها في ضوء مقاييس مخصوصة لا تخالف العقل والمنطق.

رابعاً: وفرة العوامل المعينة على المشاهدة، والترحال، فالتيجاني الرحالة كان في جماعته نفر من خيار الناس وفضلائهم، وكانت إقامته في وسط البلد بدار الوالي بحيث لا يكدره شقاء أو همٌّ أثناء فترة الضيافة الطويلة.

على أن هذا الصنيع الذي نتج عن جهد مشكور من الرحالة التيجاني يعدّ مكسباً مغاربياً ستذكره الأجيال بتقدير، وعرفان.